Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux
Observatoire Social Tunisien

CAHIERS DU FTDES N°6

Forêts tunisiennes

Entre marginalité territoriale et valorisation des ressources naturelles.

Regards croisés entre gestionnaires et usagers

Coordination : Brahim Jaziri

Février 2022

الغطاء النباتي في جبل برقو (الظهرية الوسطى) مورد طبيعي ودعامة للتنمية المحلية المستدامة والمتضامنة في المناطق الداخلية

خالد عبازة[1]

الملخص

تعطي الكتلة الجبلية ببرقو مثالا عن تطور الأوساط الجبلية المتوسطية في إطار البيومناخ نصف القاحل. فبالرغم من محدودية امتدادها المجالي، تحتضن الكتلة الجبلية ببرقو في الظهرية الوسطى في تونس تنوعا للمشاهد والأوساط. ويرجع هذا الثراء أساسا، إلى تأثيرات الظروف الايكولوجية المحلية (المناخ، السحنات، الممارسات الفلاحية والغابوية والرعوية القديمة والحالية...).

وقد عرفت الكتلة الجبلية ببرقو الحضور البشري منذ القديم. وقد انجر عن الاستخدام القديم والحالي للأرض في قطاع الدراسة ضغط كبير على الموارد الطبيعية (أساسا، الترب والغطاء النباتي) في علاقة بأنشطة الاجتثاث الغابي وامتداد النشاط الزراعي والأخذ الخشبي والرعوي.[2] ولقد أدى هذا الضغط البشري، إلى بروز أزمة بيئية واجتماعية حادة في بعض الأوساط، تجسدت خاصة في انحسار كبير للغطاء النباتي الطبيعي وشدة تدهور تشكيلاته النباتية وانتشار لمظاهر الانجراف في عدة مواقع من جهة، وفي تدهور لمستوى عيش السكان نتيجة لانحسار الموارد، مما أنتج حركات نزوح ريفي مكثف منذ سبعينيات القرن الماضي وظهور عدة حالات للخلاء الريفي من جهة أخرى. ويقدم هذا العمل بعض

[1]أستاذ باحث، جامعة تونس.

[2] Prélèvements ligneux et pastoraux.

المقترحات المستوحاة من البيئة الخصوصية للمجال لتجاوز الأزمة ولإرساء تنمية محلية مستدامة ومتضامنة في هذا المجال الخلفي للبلاد التونسية.

كلمات دليلية: جبل برقو، غطاء نباتي، دينامية، أزمة، تنمية محلية.

Abstract

The mountainous area of Bargou represents a local example of the Mediterranean mountains evolution in the semi-arid bioclimatic system.

Despite its limited geographic expansion, that mountainous area situated in the medium dorsale of Tunisia, offers a variety of ecosystems and landscapes that depend on the local ecological conditions such as the local climate, the actual and inherited agricultural practices and the pastoral system. In fact, that area knew an ancient population implantation which leads to an excessive exploitation of the natural resources (essentially soils and natural vegetation) via deforestation aiming to extend the agricultural area. That human pressure is the major factor of the environmental and social crisis in this region. The decrease in the vegetation extension, the deterioration of plant cover and the acceleration of erosion, led to a social abandonment that has started from the seventies of the 20th century. This paper suggests an array of solutions inspired from the local environmental characteristics in order to support the local sustainable development in rural areas in Tunisia.

Keywords: Bargou mountain, vegetation, deforestation, crisis, development.

مقدمة

بالنظر إلى ضخامة كتلته وارتفاعه (1268م.)، يعد جبل برقو الواقع في قلب الظهرية الوسطى، من أهم الوحدات التضارسية في البلاد التونسية. وتحتضن هذه الكتلة الجبلية غطاء نباتيا ثريا ومتنوعا سواء من حيث الأنواع النباتية المكونة له أو من حيث الأشكال المشهدية المنجرة عنها. وتعود هذه الوضعية إلى تأثير مزدوج للعوامل الطبيعية المميزة لهذا المجال الجبلي (أشكال التضاريس وأنواع الترب

وفسيفساء المناخات المحلية) ولمختلف التدخلات البشرية القديمة والحالية في المجال استغلالا وتهيئة. وقد لعب الغطاء النباتي في الكتلة الجبلية لجبل برقو، باعتباره موردا طبيعيا، دورا مهما عبر التاريخ، في تعمير هذا المجال الخلفي من البلاد التونسية وفي إرساء دعائم التنمية الاقتصادية والاجتماعية المحلية فيه، كما ساهم في خلق ديناميات ترابية وبيئية متنوعة. لكن شهد هذا المجال منذ عشريات، تأزما واضحا في علاقة مباشرة بالتزايد الديموغرافي الذي خلق ضغطا معتبرا على الموارد الطبيعية المتاحة (موارد غابية ورعوية ومائية وفلاحية)، في ظرفية تميزت بإحكام سيطرة الدولة على مجالها الغابي وبروز تحولات عميقة في اشتغال/استغلال الأرض وفي الهياكل العقارية في المنطقة وانحسار التحركيات المجالية الكبرى للسكان (البداوة والانتجاع) وتغير أنماط عيشهم وتزايد الجاذبية الحضرية لهم. وقد نجم عن هذه الوضعية تفاقما للنزوح الريفي والهجرة نحو المدن المجاورة وخاصة في اتجاه العاصمة من ناحية، وبروز عدة مظاهر للخلاء والترك الريفيين، هنا وهناك من ناحية أخرى. كما أدت هذه الوضعية أيضا، إلى بروز سيرورات دينامية جديدة للغطاء النباتي تمثلت خاصة في إعادة توطن النباتات في المجالات الغابية التي عرفت تدهورا عميقا واجتثاثا حادا نتيجة لشدة الاستغلال البشري الذي عرفته منذ مدة، مما يؤشر إلى تراجع ملحوظ للضغط على الموارد الغابية والمحيط عموما. يسعى هذا العمل في مرحلة أولى، إلى إبراز الجوانب اللامعة من ثراء الغطاء النباتي والمشهدي للكتلة الجبلية لجبل برقو والى تتبع الدور الذي لعبه هذا التراث النباتي والمشهدي في حياة السكان والمجال في فترات الازدهار والتأزم. وفي مرحلة ثانية، يرمي البحث إلى اقتراح بدائل جديدة للعلاقة بين الإنسان والمجال الغابي في منطقة جبل برقو من اجل إرساء مقومات تنمية محلية مستدامة ومتضامنة.

1. الخصائص الطبيعة والبشرية للكتلة الجبلية لجبل برقو

1.1. مجال جبلي متوسطي

بارتفاع يقدر ب 1268 م، يعد جبل برقو من أهم التضاريس المكونة للظهرية الوسطى في تونس. وتتخذ كتلته الجبلية من الناحية الطبوغرافية شكلا اهليجيا[3] واضحا ذا اتجاها أطلسيا. وتتميز هذه الكتلة الجبلية أيضا، بقمتها الممتدة والمسطحة والتي تتخللها عدة تقطعات، مما مكن من بروز عدة قمم فرعية على شكل "كيفان" تعلو بوضوح منخفضات بلاد ربع أولاد يحي[4]. من أهمها: كاف علي بودربالة (1208م) والكاف الأحمر (1242م) وكاف الحفرة (812 م) وكاف لملوك (1043م) وكاف حسين (1137م) وكاف سركونة (1115م) ...

وتجعل هذه الأشكال المتضرسة بلوغ قمة جبل برقو أمرا صعبا. ويتميز السفح الغربي لجبل برقو بوجود عدة منخفضات تسمى محليا "السرجة"، على غرار "سرجة المزاتة" والتي تكون أحواض تجميع مياه لعدد هام من الأودية التي تنطلق من السفوح الجبلية، لعل أبرزها وادي المزاتة الذي يفصل بواسطة خانق عميق، جبل برقو عن بقية الوحدات التضاريسية الأخرى الأقل أهمية من حيث الكتلة والارتفاع: جبال كم الخزالة (727 م) وجبل بوخيل (725م). وانطلاقا منها، تصبح الأشكال التضاريسية منفرجة مكونة أشكالا فرعية يطلق عليها محليا اسم "الراقوبة": راقوبات سيدي عمارة (544م) الأبيض (593م) وأم هاني (550م) ...وتتخلل خطوط أعراف هذه الارتفاعات فجاجا عديدة تجعل منها أشكالا متقطعة في غالب الأحيان. وتنتشر بين هذه الجبال مجموعة من الأودية ذات مشاهد مختلفة لكنها تشترك في كونها عميقة وذات مجار متعرجة في اغلب الأحيان خاصة من جهة أعالي السفوح. ومن أهمها وادي برقو الذي تختلف تسمياته من منطقة إلى أخرى داخل الكتلة الجبلية ووادي المزاتة ووادي الدريجة.... وتنتشر بين هذه

[3] Forme elliptique.

[4] Mongi Bourgou, *Le bassin versant du Kebir-Miliane (Tunisie nord-orientale). Etude géomorphologique*, Publications de l'Université de Tunis, 1993, 423 p.

التضاريس عدد هام من الينابيع الطبيعية ذات مياه عذبة: عين بوسعدية وعين الدريجة وعين دمان الخروب وعين الصفية. تنمو مختلف هذه الأشكال التضارسية في صخور صلبة يطغى عليها الكلس وتنتمي إلى تكوينة "السرج" الجيولوجية المتركبة أساسا من الكلس والكلس الطفلي ذي سحنات من الصوان والدوليميت والحث.

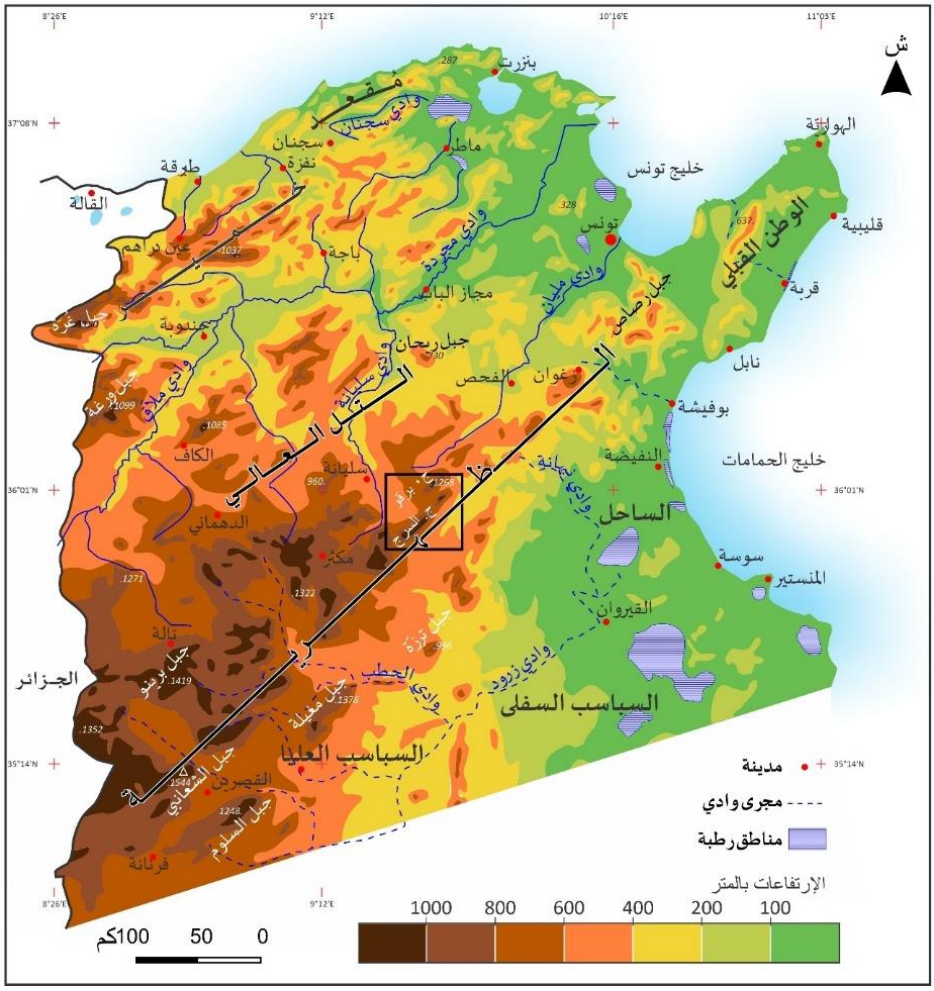

شكل 1: موقع الكتلة الجبلية لبرقو في شمال البلاد التونسية

من الناحية المورفولوجية، تقدم الكتلة الجبلية لبرقو شكل محدب ضخم تولدت عنه فسيفساء من الأشكال والتكوينات البديعة الناجمة عن تطور البنى الجيولوجية والبيئات خلال الأزمنة الجيولوجية: قباب ، قباب ناجمة ، بهرات ،

افجيجات ، مثلاثات ، أضلع ، عارضات ، الأشكال الكارستية السطحية وتحت الأرضية، الأشكال الناجمة عن الثلج والبرد، الحادورات، مخاريط (مراوح) الانصباب. وتغطي السفوح الجبلية تربا كلسية رديئة بفعل تأثير الانجراف وهي بذلك ضعيفة المردودية الفلاحية.

شكل 2. مشهد بانورامي للكتلة الجبلية ببرقو والقرى المنتشرة فيها

من الناحية البيومناخية، يمكن أن نميز بين طابقين بيومناخيين متوسطيين رئيسيين حسب مفهوم امبرجي في الكتلة الجبلية لبرقو:

- البيومناخ شبه الرطب، الذي يشمل قمم أهم الجبال وسفوحها الشمالية على ارتفاعات تتجاوز في المعدل 700 م. وتتحصل هذه الطبومناخات على معدلات تساقطات سنوية تتجاوز 600 ملم وتسجل انخفاضا ملحوظا في درجات الحرارة مقارنة بأسفل السفوح وأقدام الجبال. وتتميز هذه المواضع أيضا، بتواتر الرياح وعنفها.

- البيومناخ نصف القاحل في مستواه الأعلى الذي يهم الارتفاعات دون 700 متر، وهي اقل رطوبة وأكثر حرارة من الصنف البيومناخي السابق.

وتسجل المنطقة سنويا تواترا للتساقطات الصلبة على شكل ثلوج وبرد مما يؤثر على الغطاء النباتي والغراسات.

وفي الجملة، تتميز الكتلة الجبلية لبرقو بمناخ متوسطي ذي فترتين بارزتين: فترة باردة وممطرة وأخرى جافة وحارة. وتلعب هذه الخصائص المناخية دورا هما في توزع الغطاء النباتي كما تحدد الأنواع النباتية والأنشطة الفلاحية.

2.1. مجال تعمير قديم أصبح اليوم طاردا للسكان

من الناحية البشرية، يعد التعمير ظاهرة قديمة في الكتلة الجبلية لبرقو وتعززت التقاليد القروية خاصة منذ القرنين 17 و18[5] . وتضم معتمدية برقو قرابة 13000 نسمة سنة 2017 [6] ، يتوزعون بين مدينة برقو التي تعد لوحدها حوالي 3/1 حجم سكان كامل المعتمدية والعمادات الجبلية السبع المنتشرة هنا وهناك في كامل الكتلة الجبلية (3/2)، وهو ما يشير إلى تركز سكاني هام على السفوح الجبلية وفي أقدام الجبال ذات الإمكانات الفلاحية المتواضعة وهي ظاهرة مميزة لمعتمدية برقو. ويرجع ذلك إلى مسائل عقارية مرتبطة بتاريخ تملك الأرض. كما يتميز كامل المجال الجبلي بضعف الكثافة السكانية (وهو ما يتناقض مع الضغط البشري الكبير المسلط على المجال الغابي). وشهد هذا المجال انفجارا ديموغرافيا بين سنوات 1920 و1970 إذ بين اوكلار سنة 2002 أن عدد سكان برقو قد ازداد بـ 85 % بين 1921 و1956. إثر ذلك، عرف الحجم السكاني تراجعا ملحوظا وهو ما تؤكده الإحصائيات الديموغرافية الأخيرة (15900 ساكنا سنة 1994 مقابل حوالي 13000 ساكنا سنة 2017).

ويعود هذا التقلص إلى موجات النزوح الريفي نحو المدن المجاورة والساحل والعاصمة الذي سجلتها المنطقة منذ ما يزيد عن أربع عشريات خلت[7]. وتتجلى ملامح هذا التراجع السكاني حاليا أيضا، من خلال تعدد مظاهر الخلاء التام الذي

---

[5] Laurent Auclair et Mohamed Raouf Saidi., *Charbonnage en Tunisie : les filières informelles révélatrices de la crise du monde rural.* Forêt méditerranéenne, t. XXIII, n°2, 2002, pp 133-148
Laurent Auclair, *Charbonnage en Tunisie, les formelles révélatrices de la crise du monde rural*, Forêt méditerranéenne, n°2. 2002, pp.133-148.

[6] ديوان الشمال الغربي سليانة في أرقام 2018

[7] DYPEN-Tunisie, *Enquête principale de Bargou. Résultats sttaistiques par Imada*, Tunis, 1997, 47p.

تعرفه عدة قرى تاريخية في الجبل على غرار دشرات الغار ومديولة والبحيرن وبوتيس والدريجة وغيرها (الشكلان 2 و3).

على صعيد أخر، تبين المعطيات الإحصائية لسنة 2017 تهرما واضحا لسكان المجال المدروس، إذ يمثل السكان البالغون لسن 25 سنة وأكثر قرابة 70 % من مجموع سكان المعتمدية. وتتجلى هذه الخاصية أساسا في بعض القرى الجبلية مثل عين بوسعدية وأولاد فرج والبحيرين، وهي ظاهرة مرتبطة بالركود الديموغرافي وموجات النزوح الريفي. ونميّز من حيث التعمير، بين نمطين كبيرين من السكن في الكتلة الجبلية لبرقو: السكن التقليدي المشرف في القرى (الدشرات) المنتشرة هنا وهنا على السفوح الجبلية وأقدامها، وبين السكن المشتت على شكل دواوير صغيرة تضم في المعدل حوالي 4 مساكن ومنتشرة في المجال الجبلي. ويسلط هذا النمط الأخير من التعمير ضغطا كبيرا على الموارد الغابية. وينحدر سكان الكتلة الجبلية ببرقو من أصول اثنيه مختلفة، حيث يمثل المنتمون إلى مجموعات البرقاوي والمانسي والدريدي وأولاد يحي أكثر من نصف السكان[8].

3.1. مجال ريفي تهيمن عليه فلاحة المزارعين الصغار

تستقطب الأنشطة الريفية لوحدها 33 % من مجموع السكان النشطين في معتمدية برقو. وتعكس المشاهد الريفية هيمنة نمط فلاحي تقليدي، أساسه المزارعين الصغار الذين يتعاطون أشغالا ريفية مختلفة في إطار التعدد النشاطي العائلي ترتكز على زراعة الحبوب وغراسة الزياتين البعليتين في مستغلات صغير الحجم، من ذلك أن قرابة 75 % من الفلاحين ينشطون في إطار مستغلات متعددة القطع ولا يتجاوز معدل مساحتها 10 هك. ويستقطب نشاط تربية الماشية الممتدة والمعتمدة على المراعي الطبيعية الجبلية قرابة 85 % من أرباب الأسر ويتم هذا النشاط في إطار قطعان صغيرة (دون 10 رؤوس في المعدل) متكونة من الأغنام والماعز والأبقار من السلالات المحلية.

[8] Laurent Auclair et Mohamed Raouf Saidi., Charbonnage en Tunisie : les filières informelles révélatrices … Op. Cit., p179.

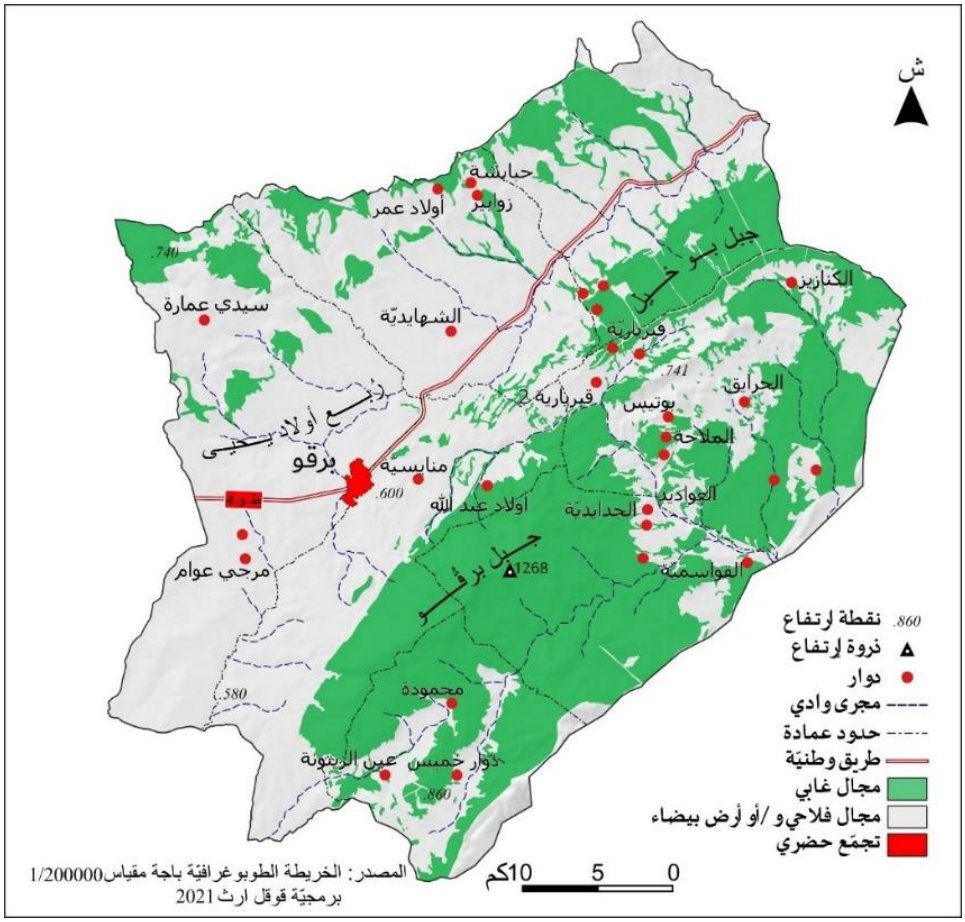

شكل 3: اشتغال الارض في الكتلة الجبلية لبرقو سنة 2021

وفي الجملة، حافظت الفلاحة في الكتلة الجبلية ببرقو على صبغتها التقليدية والمعاشية، نظرا إلى وعورة التضاريس ومحدودية امتداد الأراضي الفلاحية وضعف الإمكانيات المادية للمزارعين. وهو ما يفسر من ناحية، تدني مستوى عيش السكان، والضغط الذي تسلطه مختلف الأنشطة الريفية على الموارد التربية والغابية من ناحية أخرى.

2. الغطاء النباتي في كتلة جبل برقو: تنوع للمشاهد وثراء في الأنواع النباتية

نشير إلى أن اغلب المجال الغابي في الكتلة الجبلية لبرقو يوجد ضمن ملك الدولة الخاص الذي يتمتع بحماية النصوص القانونية الواردة في مجلة الغابات الصادرة في نسختها الأولى سنة 1966.

ويعكس الغطاء النباتي للكتلة الجبلية لبرقو التأثير المباشر لتنوع الأوساط المكونة لها والناجمة عن اختلاف التضاريس والترب والبيئات المناخية ومختلف أوجه تدخلات الإنسان في المجال ماضيا وحاضر .وتتلخص السمات الكبرى للبنى السيمائية[9] للغطاء النباتي في المجال المدروس فيما يلي:

1. التشكيلات المخشوشبة[10]

تتميز التشكيلات المخشوشبة بتنوعها وثراء مكوناتها النباتية من ناحية، وبهيمنة التشكيلات الثانوية الناجمة عن التدهور الغابي من ناحية أخرى. ويمكن تصنيفها بالاعتماد على الأنواع النباتية المهيمنة على المشهد إلى الأصناف التالية:

- **غابة من الصنوبر الحلبي والبلوط الأخضر والطاقا والخلنج والاكليل**

تحتل البيئات الأكثر رطوبة وتمتد هذه الغابة في العادة على شكل قطع متوسطة المساحة[11] على ترب كلسية بنية ذات تركيبة محبحبة[12]. وتهمن طبقة منفرجة من أشجار الصنوبر الحلبي على تركيبة هذه التشكيلة النباتية وتتخللها جنبات[13] من الطاقا والبلوط الأخضر والضرو والقتم. ونجد في الطبقة السفلى نبات الإكليل

[9] Structures physionomiques.
[10] Formations ligneuses
[11] Marouène Swayhi, *Végétation, usages et activités nouvelles dans le secteur d'Ain Bousaadiya (Djebel Bargou)*, Mémoire de mastère, Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de Manouba. 2016, 122 p.
[12] Structure grumeleuse.
[13] Arbustes

والخلنج والسكوم وخاصة لاذن مونبيلي واللاذن القطني. وما يلفت الانتباه في هذا المشهد الغابي أيضا كثرة الشواهد الدالة على تدخلات الإنسان، خاصة قرب المساكن على غرار أثار قطع النبات وقلعها والرعي المفرط ووجود عدة منفرجات غابية اغلبها قديمة النشأة.

- **ايك[14] طويل من البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي والخلنج ذو سحنة[15] من بطوم الكيفان**

تحتل هذه التشكيلة الغابية الترب الغرينية والكلسية في أعالي جبل برقو وخاصة على سفوحها الشمالية والشمالية الغربية ذات الانحدار الحاد[16]. ويتركب النبات من طبقة عليا ذات ارتفاع لا يتجاوز 7 أمتار في المعدل ومتوسطة التغطية ومتكونة أساسا من شجيرات البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي. أما الطبقة الوسطى فهي تتركب أساسا من جنبات من البلوط الأخضر والطاقا وبطوم الكيفان والقطلب التي لا يتجاوز ارتفاعها المترين. وتتواجد في أسفل هذه التشكيلة طبقة سفلى كثيفة متكونة من أجمات وكومات من الإكليل والخلنج والديس ومن بعض العشبيات الحولية أليفة الرطوبة والغنية بالمواد العضوية مثل القطابة والسكوم.

- **ايك طويل /متوسط من الجبوز والضرو والخروب والياسمين الوحشي**

يتميز هذا النوع من التشكيلات النباتية بانتشاره الكثيف في مواقع عدة في الكتلة الجبلية في جبل برقو (في الارتفاعات المتوسطة والمنخفضة وعلى طول قيعان مجاري الأودية) ويحبذ الترب الغرينية الغنية بالمواد العضوية. ويكون المشهد النباتي في العادة كثيفا وتهيمن عليه أشجار الجبوز الضخمة وتتخللها بعض أشجار الخروب المنعزلة. وغالبا ما تكون التفرة منفرجة جدا وفقيرة وتتكون من اللاذن والإكليل والسكوم والديس والعليق والعكريشة...

[14] تشكيلة مغلقة من المخشوشبات لا يتجاوز ارتفاع طبقتها العليا 6م (Matorral) .

[15] Faciès

[16] Essia Ben Miloud, *L'homme et la dynamique de la végétation dans le secteur de Drija (jebel Bargou)*, mémoire de DEA, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 1998, 141 p.

بحكم قربها من المستغلات الفلاحية والمساكن المتواجدة على السفوح وأقدام الجبال، فان هذه التشكيلة النباتية تكون أكثر عرضة للضغط البشري، حيث تكثر عمليات التحطيب والرعي المفرط وخاصة عمليات الاجتثاث المنعزلة التي تهدف إما إلى توسيع المستغلات الفلاحية المجاورة للمجال الغابي أو حتى إلى إحداث منفرجات غابية جديدة في بعض المواضع.

صورة 1: فسيفساء من التشكيلات النباتية الصنوبرية على السفح الشمالي لجبل يرقو (الصورة للمؤلف 2018)

- **ايك قصير ذو الإكليل واللاذن**

يحتل مساحات شاسعة خاصة في الارتفاعات المنخفضة والمتوسطة وفي الأوساط الغابية التي شهدت تدهورا نتيجة عمليات اجتثاث غابي قديم أو لمرور سابق للنيران... لا يتجاوز ارتفاع الطبقة المهيمنة 0.6م وتتكون من مخشوشبات قزمية يهيمن عليها الإكليل والخلنج ولكنها تضم بعض الأنواع الأخرى مثل القندول والوزال الرمادي والزريقاء ولاذن مونبيلي ولاذن لبنان واللاذن القطني. وتغطي هذه الطبقة

65 % من سطح الأرض. أما الطبقة الخاضعة فهي تتركب من بعض العشبيات مثل سبول الفار والقصيبة البرية والديس.

- **ايك قصير من الإكليل ذو الحلفاء**

يتواجد هذا الصنف من التشكيلات الغابية في البيئات الأقل رطوبة وعلى الترب الفقيرة والمنجرفة سيما على السفوح الجنوبية لكتلة جبل برقو. هو مشهد منفرج جدا ويعبر عن تدهور شديد للغابة المتوسطية. ونجد من بين مكوناته النباتية، كومات من النباتات الالفحرارية[17] والالفجفافية [18] مثل من الحلفاء والقتات والديس والعرعار الفينيقي والزريقاء ولاذن لبنان والخلنج والمثنان والصعتر. وتنتشر بين النباتات عدة مظاهر للتعرية المائية مثل الحصى والفرشة المنقولة والجلاميد والجذور العارية والتي بالإضافة إلى التدخلات البشرية، تمنع النباتات من التكثف. من الناجية الدينامية، يؤشر هذا المشهد عن تسهب[19] مطرد للأوساط الغابية المتوسطية.

- **ايك قصير من البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي**

هو مشهد نباتي ناتج عن التجدد التلقائي للنباتات الغابية بعد الحرائق، ويتواجد هنا وهناك في الكتلة الجبلية بجبل برقو على شكل فتحات ذات مساحات مختلفة داخل التشكيلات الغابية. ويتكون المشهد من طبقتين مخشوشبتين مختلفتين من حيث البنية والثراء النوعي: طبقة وسطى منفرجة متكونة من أجمات من الصنوبر الحلبي والبلوط والضرو لا يتجاوز ارتفاعها في المعدل المترين وطبقة سفلى كثيفة وغنية بالأنواع النباتية حيث يتواجد لاذن مونبلي واللاذن القطني والقندول والخلنج والعنصل والبرواق.

[17] Espèces thermophiles
[18] Espèces xérophiles.
[19] Steppisation.

- **ايك قصير من المثنان والعنصل والبرواق والبلوطة والمروبيا**

يتواجد هذا النوع من الغطاء النباتي في الأوساط الأكثر تدهورا نتيجة لعمليات الاجتثاث والرعي المفرط والانجراف الحاد للترب (قرب الزرائب والمساكن المهجورة وعلى طرفي بعض المسالك الجبلية والطرقات...). وتتركب هذه التشكيلة من طبقتين فقط: طبقة مهيمنة من المخشوشبات القصيرة (دون 0.6م) متكونة أساسا من المثنان ولاذن مونبيلي والقندول وتكون عادة ضعيفة التغطية وطبقة خاضعة[20] متكونة من نباتات غير مستساغة من الماشية مثل العنصل والبرواق والمروبيا والبلوطة...وتمثل المروبيا والبلوطة بكل أصنافهما من النباتات العسلية التي تقبل عليها افوج النحل في المجال المدروس

1. **الغطاء التفري**[21]

- **الغطاء التفري في قمم الجبال**

هي تشكيلات ضعيفة التغطية لكنها ثرية من حيث الأنواع النباتية وتعبر عن أثر عميق للرياح والانجراف على نمو النبات وأشكالها وتزوعها. ونجده خاصة في أعالي سفوح جبال كتلة جبل برقو وقممها وبين شقوق الصخور الكلسية. ومن بين الأنواع النباتية المميزة لهذه التشكيلة هناك البلوط الأخضر والقرنفل والعنصل والبرواق وصباط الغولة وسبحان الخلاق والفيجل والقريصة والكراث....

- **الغطاء التفري في المنفرجات وأراضي البور**

يتميز الغطاء الغابي في كتلة جبل برقو بكثرة المنفرجات الغابية نتيجة لعمليات الاجتثاث والتقطيع القديمة والحديثة والحرائق. وتحوي هذه الأوساط على غطاء تفري يتكون في العادة من طبقة واحدة عشبية متركبة من أنواع عشبية حقلية مثل سبول الفار والأقحوان والداد البري والقصيبة وشقائق النعمان والخبيزة...وتتخللها بعض النباتات

[20] Strate dominée.
[21] Erme (ou/ et pelouse).

المخشوشبة مثل اللاذن والزريقاء والمثنان والبلوطة والقندول. ويستغل هذا النوع من الغطاء التفري كمراع طبيعية وبذلك فهو في تدهور مستمر.

2. التشكيلات الفيضية[22]

تحتضن مجاري بعض الأودية مثل برقو والدريجة ومزاتة والصفية وضفافها وخوانقها تشكيلات نباتية خطية كثيفة ومختلفة التركيبة. تتكون في الغالب من عدة طبقات متمايزة: طبقة عليا كثيفة متكونة من أشجار ضخمة من الصفصاف والخروب والجبوز والطرفاء، وطبقة وسطى متركبة من شجيرات الضرو والزعرور وعود الماء والقصب و الدردارة والتين والصبار و الكشريد والدفلى وطبقة سفلى من الياسمين الوحشي وعدة أنواع من المتسلقات[23].

3. جبل برقو، المجال الحيوي لساكنيه

مثلت الكتلة الجبلية لجبل برقو منذ القديم موردا أساسيا لسكانه حيث وفرت لهم المأوى والماء والخشب والمرعى. ولقد شهدت علاقة السكان بمجالهم الغابي تحولات هامة منذ بداية القرن الماضي تحت تأثير مفاعيل عديدة منها المحلي ومنها الخارجي، وكان لها تأثيرات عميقة على الثروة الغابية والديناميات البيئية من جهة، وعلى إعمار المجال من جهة أخرى.

1.3. ضغط كبير على الغابة قبل الاستقلال

كغيرها من المناطق الغابية في الشمال التونسي، شهد المجال الغابي في كتلة جبل برقو تدهورا كبيرا في تركيبته وتراجعا هاما في مساحاته قبل الاستقلال تحت تأثير التغلغل الاستعماري والضغط البشري على الموارد الغابية في علاقة بالانفجار الديموغرافي الذي شهدته المنطقة خلال هذه الفترة. فمنذ انتصاب الحماية في

[22] Formations ripicoles.
[23] Plantes grimpantes.

تونس سنة1881[24]، اعتبرت الأراضي الغابية على ملك الدولة رغم أنها كانت تستغل بصفة جماعية قبل ذلك من طرف السكان المحليين. فموجب المرسوم الصادر في 14 افريل سنة 1890 تملكت الدولة المجال الغابي وقامت سلطات الحماية بتقسيم الأراضي الغابية المتواجدة في أقدام الجبال وأسفل السفوح ووزعتها على المعمرين مما نتجه عنه توسعا هاما للمجال الزراعي على حساب المجال الغابي تحت وقع موجات عديدة من الاجتثاث. وفي مقابل ذلك، اجبر السكان المحلين على الاستقرار على الأراضي ذات الانحدارات في أعالي السفوح مما تسبب في عمليات اجتثاث كبيرة للغابة وتدهور حاد للتشكيلات النباتية من خلال إحداث الفجوات الزراعية وعمليات التحطيب والرعي والتفحيم. وازداد الضغط على الموارد الغابية نتيجة لارتفاع الحاجيات بفعل التزايد الديموغرافي المسجل خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. ويبين الجدول 3 والشكل 4 حدة هذه الظاهرة في قطاع من جبل برقو.

جدول 3: تطور اشتغال الأرض في قطاع الدريجة بين سنوات 1922 و1998 (%).

	1923-1922	1998
الغابة	64	24
الأحراش	25.5	30.5
الزراعات	10.5	45.5

المصدر: Ben Miloud, 1998

[24] Charles Monchicourt., *La région du Haut-Tell, en Tunisie (le Kef, Téboursouk, Mactar, Thala) : essai de monographie géographique*, A. Colin (Paris), 1913, 560p.
Jean Poncet, *La colonisation française et l'agriculture européenne en Tunisie depuis 1881*. Paris, École pratique des hautes études, 1961,700 p.

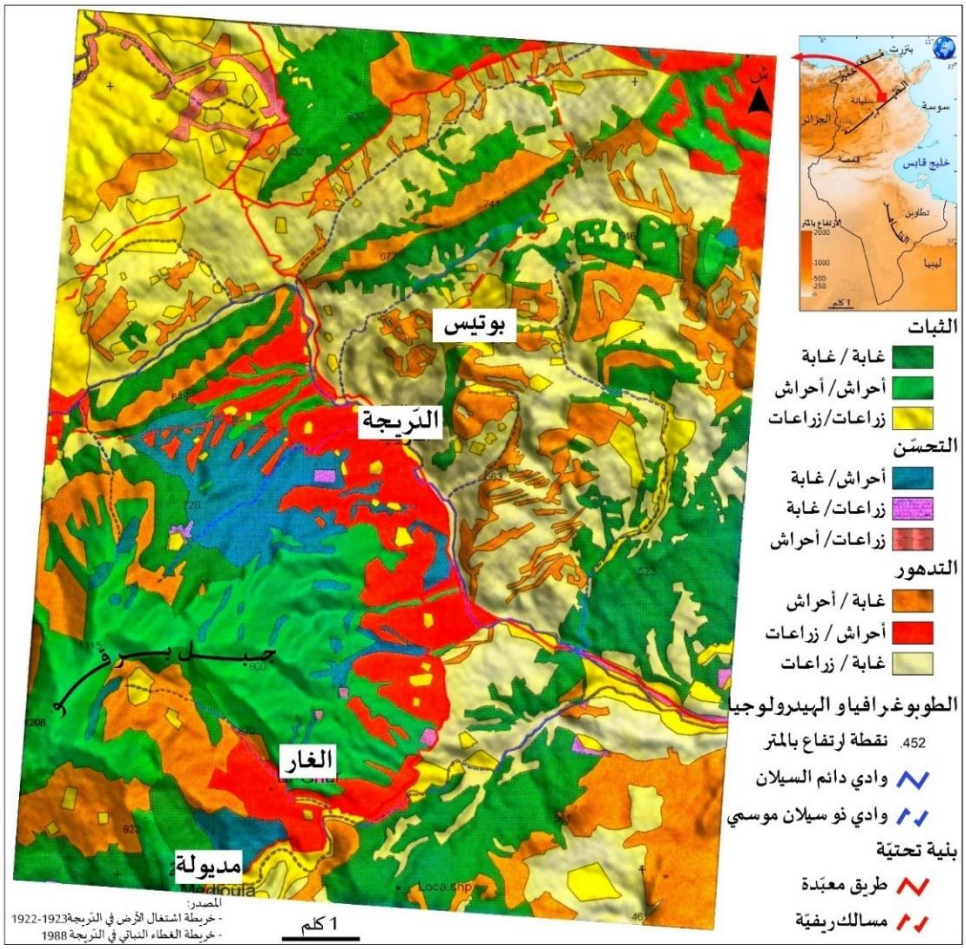

شكل 4: تطور اشتغال الأرض في قطاع الدريجة بين 1922 و1998

المصدر: Ben Miloud, 1998

2.3. تراجع الموجات الكبرى للاجتثاث الغابي وتواصل الضغط على الموارد الغابة بعد الاستقلال

يعود التراجع المسجل في حركة الاجتثاث إلى مجهودات الدولة الفتية للمحافظة على ثرواتها الطبيعية، فقد صدرت مجلة الغابات سنة 1966 التي نظمت عمليات استغلال الأراضي ذات الصبغة الغابية وحددت حقوق ساكني

المجال الغابي[25] كما عملت الدولة على تشديد الرقابة لصون الثروة الغابية وأنجزت مشاريع عديدة للتهيئة والتشجير ومقاومة الانجراف. وقد ساعد على النجاح النسبي لهذه البرامج تراجع الضغط البشري في الأرياف خاصة بعد سبعينيات القرن الماضي بسبب تقلص نسبة النمو الديموغرافي وتزايد حركات النزوح والهجرة (انظر الجزء الأول).

ولم يكن المجال الغابي لكتلة جبل لبرقو بمنأى عن هذه التحولات، إذ شهد عدة أشغال تشجير وحماية للترب والمياه شملت قطاعات مختلفة من الجبل. ومن جهة أخرى، عملت الدولة خلال الستينات على الحد من الكثافة السكانية في المجال الغابي، فشجعت قاطني الغابة على ترك مساكنهم التقليدية سواء تلك المشتتة في كامل المجال الجبلي أو تلك المجمعة على شكل دواوير ودشرات غابية في الجبل (مديولة والبحيرين والغار وصدقة والدريجة وقصر لمسة وعين بوسعدية...) للاستقرار في قرى محدثة[26] تحوي على الحد الأدنى من الخدمات والتجهيزات (طرق معبدة، مدارس، مراكز صحية، أساسية، مراكز بريد...) مثل عين بوسعدية والبياض وغيرها وعممت فيها استعمال قوارير الغاز المنزلي. كما أدى الفشل النسبي لبعض مشاريع التشجير من جهة، وإحكام سيطرة الدولة على المجال الغابي من جهة ثانية، إلى ظهور موجات كبيرة من النزوح الريفي مما ساهم في إفراغ الجبل من سكانه وانتشار مظاهر الخلاء الريفي في بعض المواقع (الدريجة والغار ومديولة والبحيرين وغيرها).

[25] تتعرض مجلة الغابات في بعض فصولها (من 46 إلى 56) إلى حقوق الاستغلال بالنسبة لسكان الغابة الذين يعرفهم القانون بأنهم "كل مواطن تونسي يقطن بالغابة أو في دوائرها التي لا يتجاوز بعدها 5 كلم وتكون له أقدمية في الإقامة والاستغلال لا تقل عن 10 سنوات...". وتتمثل الحقوق "في إرضاء الحاجات الشخصية والعائلية ولا يجب إن تكون له صبغة تجارية أو صناعية..".

[26] تعرف محليا بـ "الملاجئ".

صورة 2: مشاهد من التهيئة الغابية في جبل برقو : التشجير بالصنوبر الحلبي والتحكم في مياه السيلان بإحداث المصاطب الصخرية (الصورة للمؤلف 2020)

وتواصل تدخل الدولة في المجال الغابي منذ منتصف الثمانينات لتوفير موارد جديدة للسكان ولتثبيت السكان في قراهم من خلال الشروع في برامج لإحداث مناطق سقوية صغرى تختص في غراسة بعض الأشجار المثمرة التي تتأقلم مع البيئات المحلية مثل أشجار التفاح والخوخ والكرز (قريتا صدقة والدخيلة أساسا). كان لمجمل هذه التحولات تأثير ايجابي على الثروة الغابية التي استعادت عافيتها في مواضع عديدة من الجبل ويتضح ذلك من خلال بروز عدة مظاهر للتجدد التلقائي للنباتات داخل المنفرجات الغابية المهجورة وفي الاجرف الصخرية كما هو الحال على القدم الشمالي الشرقي لجبل برقو[27] وتحسنت نسبة التغطية النباتية. إلا أن عمليات الاجتثاث والتفحيم لم تنقطع بل تحولت إلى ممارسات خفية حيث بين اوكلار منذ سنة 1994 أن صناعة الفحم من الخشب لا زالت تهم قرابة 10 % من

[27] Essia Ben Miloud, *L'homme et la dynamique* …Op. Cit. p. 183.

مجموع سكان جبل برقو وهي نتيجة توصل إليها أيضا كلا بن ميلود سنة 1998[28] والسوايحي[29] سنة 2016.

جدول 4: استعمال الخشب الغابي في قرية عين بوسعدية

	%استعمال الخشب لغايات		مصدر الخشب		تواتر الاستغلال (يوم في الأسبوع)
	التدفئة	صنع الخبز	% من الغابة	% من المستغلة الفلاحية	
عين بوسعدية	73	93	73	80	3.2
البحيرين	66	86	80	53	2.4
الغار	86	100	73	86	3.5

المصدر : Swayhi, 2016

وتعد تشكيلات البلوط الأخضر بكل أصنافه (انظر الجزء الثاني) الأكثر عرضة إلى عمليات القطع للتفحيم لكونها تعطي منتوجا فحميا ذا قوة حرارية مرتفعة. وفي هذا الإطار، بين اوكلار وآخرون سنة 1995 أن قرابة 65 %من مساحة تشكيلات الايك الطويل من البلوط الأخضر تحولت إلى أحراش قصيرة ومنفرجة في منطقة أولاد فرج على السفح الغربي من جبل برقو. كما أن الاجتثاث مازال قائما في بعض السفوح والسطيحات وتحول في عدة مواضع إلى عمليات قضم منظم للغابة انطلاقا من المستغلات المجاورة لها بغية توسعتها (البحيرين والغار ...).

وتعد تربية الماشية من الأنشطة القديمة التي يتعاطاها سكان الكتلة الجبلية لبرقو في إطار النظام الفلاحي-الغابوي-الرعوي السائد في المجالات الغابية. وتغلب على تربية الماشية في المجال المدروس الصبغة التقليدية والعائلية ويتضح ذلك من خلال اعتمادها بصفة شبه كلية على المراعي الغابية (80 % في قطاع عين بوسعدية[30]) ومن متوسط أحجام القطعان الذي لا يتجاوز في المعدل 8 رؤوس

[28] *Idem.*
[29] Marouène Swayhi, *Végétation, usages et activités...* Op. Cit. p. 183.
[30] *Idem.*

للعائلة الواحدة. وتكون تركيبة القطيع مختلطة مع هيمنة واضحة للأغنام (الجدول 5).

جدول 5: تركيبة قطعان الماشية وعدد خلايا النحل في معتمدية برقو سنة 2017

الأبقار	الأغنام	الماعز	الدواب	خلايا النحل
2815	17450	1920	520	1880

المصدر: سليانة في أرقام (ديوان تنمية الشمال الغربي) 2017.

وتقضي قطعان الماشية في كتلة جبل برقو وقتها بين الرعي في داخل الغابة أو في أراضي البور المجاورة للمجال الغابي لفترة تتجاوز ¾ السنة. ففي الخريف والشتاء والربيع، يفضل الرعاة التوجه إلى المجال الجبلي للرعي داخل الغابة، حيث يتوفر الكلأ ويتيسر الاحتماء من العوامل المناخية (البرد والأمطار والرياح)، في حين تنزل قطعان المواشي إلى الأراضي البور والمساحات المحصودة في الصيف. وتشهد بعض الأوساط في كتلة برقو رعيا مفرطا (خاصة قرب المنازل وفي أقدام الجبال)، من مظاهره الأساسية انتشار الأنواع النباتية غير المستساغة من الماشية على غرار البلوطة والعنصل والبرواق والقندول والمثنان، مكونة في أوساط عدة، تشكيلات عشبية أحادية النوع بعد آن انقرضت النباتات العلفية.

4. المجال الغابي لجبل برقو، مورد واعد لدفع التنمية المحلية المتضامنة والمستدامة

إن ثراء مكونات المجال الغابي لجبل برقو وتنوع منظوماته البيئية واختلاف مشاهده الناجمة عن تداخل بين المعطى الطبيعي والإنتاج الاجتماعي يجعلان منه مجالا واعدا لدفع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في هذه المناطق الخلفية من التراب التونسي التي تشكو منذ زمن طويل تأزما وتعطلا في بناها الاقتصادية والاجتماعية وان استغلال هذه الموارد الطبيعية المتنوعة بشكل عقلاني ومستدام يمكن حتما من التأسيس لتنمية مندمجة ومستدامة وذلك من خلال:

1.4. دفع السياحة الجبلية والريفية (البيئية)

كغيرها من بلدان العالم، شهدت البلاد التونسية منذ ما يزيد عن العشرية من الزمن بروز نشاط سياحي مستحدث يرمي إلى تثمين المعالم الطبيعية والثقافية في إطار ما يعرف بالسياحة البديلة. وقد شهدت عدة مناطق من تونس انبثاثا لهذا النشاط في المناطق الريفية والجبلية وتكونت وجهات سياحية[31] معروفة تقدم عروضا سياحية متنوعة وغير تقليدية.

في الحقيقة، مازال هذا النشاط جنينيا في المجال الغابي لجبل برقو رغم توفر كل شروط نجاحه، مما يحتم على مختلف الفاعلين على المستويات المحلية والجهوية والمركزية العمل على إرساء استراتيجيات واضحة لدعمه. ولن يتسنى ذلك حسب رأينا، إلا بإيجاد الأسس التشريعية الضرورية لتنظيم مثل هذا النشاط حتى يتخلص من الصبغة العفوية التي ميزته في بعض المناطق من البلاد التونسية. وفي مراحل أخرى، السعي إلى التعريف بثراء المخزون من التراث الطبيعي في المجال الغابي لجبل برقو بجرده وتصنيفه وإبراز خصوصياته مما يمكن من استنباط مسالك سياحية بيئية طريفة، ثم العمل على الترويج لها داخليا وخارجيا وتكوين أدلاء سياحيين محليين مختصين في تنشيط هذا الصنف من العرض السياحي مما يحتم مزيدا من انفتاح المؤسسات الجامعية والبحثية على المحيط الاجتماعي والاقتصادي.

ولعل من المفيد هنا، التعرض إلى بعض مقومات النشاط السياحي التي يوفرها المجال الغابي في كتلة جبل برقو والتي يمكن أن نلخصها في العناصر التالية:

- توفر عرض سياحي متنوع كفيل بدعم سياحة بيئية وجبلية وريفية تكون قادرة على إرساء اسس تنمية محلية مستدامة. ومن عناصر العرض السياحي في الكتلة الجبلية لبرقو اختلاف المشاهد الطبيعية والريفية (انظر الجزء الأول) من ذلك تنوع الوحدات التضارسية في الكتلة الجبلية التي تكون في بعض الأحيان

[31] اذكر هنا على سبيل المثال وجهة جبل الظاهر في الجنوب التونسي

مناظر بديعة على غرار الكيفان ومخاريط الانصباب الضخمة و" السرجات" وأثار البرد على الصخور الكلسية خلال الزمن الجيولوجي الرابع ومختلف أشكال التضاريس الكارستية في أعالي جبل برقو[32]. ويمكن ان تكون هذه المشاهد مقوما لمسالك رياضة المشي والاكتشاف والتنزه الجبلية. وتحتوي الكتلة الجبلية في برقو أيضا على مناظر جميلة في علاقة بالتراث المائي الجهة. زمن عناصره: مشاهد تدفق مياه الينابيع الطبيعية وسيلان مياه الأودية على غرار ماهو موجود في عين بوسعدية والدريجة وعين زكار والصفية وعين لوبيرة وعين الغابة وغيرها، وطرق نقل مياه بعض هذه العيون وتحويلها إلى العاصمة التي تعود إلى الفترة الاستعمارية (1905) ومشاهد عديدة لشلالات طبيعية لافتة للانتباه تتوفر في عدة مواضع من وادي برقو واهم روافده. وتحتوي شبكة المياه التي تشق تضاريس كتلة جبل برقو على مناطق رطبة عديدة تحتضن تنوعا بيولوجيا كبيرا سواء على مستوى الثراء النباتي أو التنوع الحيواني في علاقة بالمياه العذبة.

صورة 3. عنصر من تهيئة مياه عين بوسعدية لتحويلها إلى العاصمة (الصورة للمؤلف 2018).

[32] Mongi Bourgou, *Le bassin versant du Kebir-Miliane* ... Op. Cit. p. 176.

وبالإضافة إلى ذلك، تمكن الكتلة الجبلية ببرقو محبي الطبيعة سواء من الهواة أو الاكادميين من التعرف إلى أنواع عديدة من الفصائل النباتية والحيوانية (طيور- زواحف- ثدييات- حشرات...) الخاصة بهذه البيئات أو النادرة أو التوطنية[33].

وفي جانب أخر، تظهر الكتلة الجبلية ببرقو أيضا مناظر فريدة تحاكي طرق تكيف الإنسان مع اكراهات هذا المجال (وعورة التضاريس وضيق السهول وامتداد المجال الغابي والرطوبة المفرطة والبرد الشديد شتاء...)، على شكل أشغال تهيوية مستنبطة من تاريخ طويل من المعارف والتقنيات التقليدية التي تتوارثها الأجيال. وتتمثل هذه المناظر في المصاطب الفلاحية المحدثة على طول الأودية والسفوح الجبلية وقرب الينابيع الطبيعية (عين بوسعدية، البحيرين، الدريجة، صدقة، الدخيلة، الصفية...). وهي منظومات فلاحية غابوية[34] فريدة تعتمد على التكثيف والاستغلال الأقصى للموارد المتاحة من ماء وترب، مما مكن من إنتاج عدة أنواع من المنتوجات الفلاحية كانت تزود السكان المحليين وكذلك أسوق المدن المجاورة بحاجياتها من الخضر والغلال التي تتمتع بخصوصيات مرتبطة بظروف المنشأ (التفاح والخوخ البرقاوي والمشمش والأعناب والرمان والتوت والعوينة...).

إن مثل هذه الإجراءات من شانها أن تلعب دورا مهما في تحفيز التنمية المجالية والاقتصادية والاجتماعية في هذه الأوساط التي لطالما عانت من التهميش والإقصاء يحد من اللاتوازنات الجهوية.

2.4. تجديد مسالك الإنتاج التقليدية

ويقصد بها الأنشطة الزراعية التي تستثمر في الموارد المحلية للمنطقة مثل الماء والترب والطوبومناخ والغطاء النباتي. ومن بين هذه المسالك الفلاحية التقليدية نجد قطاع غراسة الأشجار المثمرة ذات الأصول المحلية على غرار خوخ برقو وعنب

[33] Espèces rares et endémiques.
[34] Système agro-forestier.

وتين وسفرجل وتوت عين بوسعدية وهي في معظمها أنشطة قديمة تتم في فضاءات غابوية وتعتمد على يد عاملة محلية وقليلة العدد وذات معارف متراكمة وعلى مياه الينابيع الطبيعية العذبة. ويتم الإنتاج فيه في إطار مصاطب صغيرة متأقلمة مع وعورة التضاريس. شهدت هذه الأنشطة تأزما عميقا خاصة منذ ثمانينيات القرن الماضي نتيجة لموجات النزوح الريفي وتراجع منسوب مياه الينابيع فباتت في مواضع عدة على شكل خرائب فلاحية[35]. إن إعادة إحياء هذه المنظومات الفلاحية الأصيلة ممكن في هذه الظرفية التي تتميز بتوجه عالمي جديد يثمن منتوجات ترابات المزدرعات[36] والبضائع البيولوجية ويؤسس لاقتصاد اجتماعي ومتضامن ويحترم الخصوصيات المحلية والبيئية للمجلات والمجتمعات. وفي هذا الإطار، برزت خلال السنوات الأخيرة نواتات لمشاريع محدثة من طرف بعض الشبان من أصيلي المنطقة تهدف إلى إعادة تهيئة بعض البساتين القديمة في عين بوسعدية والبحيرين والدريجة وصدقة وذلك من خلال صيانة المصاطب الفلاحية وتعهد شبكة الري التقليدية وغراسة أنواع من الأشجار المثمرة ذات الميزة التجارية التفاضلية مثل الخوخ والتفاح والكرز (حب الملوك). وسجلت المنطقة في السنوات الأخيرة حركة "نزوح مضاد" تتمثل في عودة بعض أبناء المنطقة وخاصة من منتسبي الأسلاك النشيطة مثل الأمن والجيش[37] وغيرها للاستثمار في هذا الصنف من الفلاحة، بعد إحالتهم على التقاعد.

3.4. الاستفادة المستدامة من الثروات الخشبية وغير الخشبية للمجال الغابي

يعد استغلال الموارد الغابية الخشبية وغير الخشبية من الأشغال القديمة التي يتعاطاها سكان المجال الغابي في جبل برقو وهي ترتكز أساسا على أنشطة رئيسية ثلاث: وهي الرعي وجني الحطب وصناعة الفحم.

إن إرساء التنمية المستدامة التي تهدف إلى تثبيت السكان في مجالهم الريفي وتوفر لهم موردا محليا من جهة، وتصون الموارد الغابية من جهة ثانية، يقتضي

[35] Ruines agricoles.

[36] Produits de terroirs.

[37] يتمتعون بالتقاعد في سن مبكرة على اعتبارهم ينتمون إلى "المهن االشاقة"

القطع مع الأنشطة التي تفتك بالغابة والتشجيع على الاستغلال المستدام للثروات الطبيعية لهذا المجال الجبلي وخاصة النباتية منها. وفي هذا المجال، عرف قطاع تثمين النباتات الطبية والعطرية تطورا معتبرا خلال السنوات الماضية ويتجلى ذلك من خلال بروز عدة فرق بحثية اكادمية تهتم بجرد هذه الأنواع النباتية والتعريف بمزاياه ومن خلال نشأة نواتات لورشات تستثمر في هذا القطاع في عدة مناطق من البلاد التونسية. وهو نشاط قديم في المنطقة، حيث أن الذاكرة الجماعية تحيلنا إلى مجموعة من الأعشاب الطبية التي كان أجدادنا يستعملونها لمقاومة عدة أمراض وأوبئة، نذكر من بين هذه النباتات الكليل والزعتر والعرعار والفيجل والكبار والخروب والحرمل والزريقاء والقطابة...كما يعد نشاط جمع أجزاء بعض النباتات الطبيعية أو ثمارها مثل الخروب والصنوبر الحلبي (الزقوقو) والقطلب والبقدنوس والخرشف والشيكوريا وغيرها من الأنشطة التي تثمن الثروة الغابية في كتلة جبل برقو دون الإضرار بها. إلى جانب ذلك، يتوجب العمل على تدعيم نشاط تقطير بعض النباتات الطبيعية المتوفرة في المجال الغابي لإنتاج الزيوت العطرية على غرار الإكليل والريحان والفليو والضرو...

4.4. دعم النشاط التقليدي لتربية النحل

تعد تربية النحل قطاعا اقتصاديا عريقا في المجال الغابي لكتلة جبل برقو ويتم النشاط في إطار تقليدي ويرجع ذلك إلى تراكم للمعارف في هذا المجال والى وفرة النباتات العسلية في المنطقة (نباتات غابية وأشجار مثمرة وبعض الخضروات) والى وجود طلب على المنتوج للسمعة الجيدة التي اكتسبها العسل البرقاوي.

جدول 6: أهم النباتات العسلية في المجال الغابي لجبل برقو

النباتات الغابية	الاشجار المثمرة
الإكليل - اللاذن القطني - لاذن مونبلي- الحرمل - الكبار- الخلنج - الصعتر- المروبيا- البلوطة- السدر - السكوم- الكالاتوس- الزريقا- الطرفاء- الخروب.	التفاح - البرتقال - العنب - الخوخ - الرمان - اللوز - الكرز - السفرجل - الصبار - التين الشوكي - العوينة - المشمش.

المصدر: معاينات ميدانية 2018

وقد شهد نشاط تربية النحل في المنطقة انكماشا كبيرا خلال العشريات الأخيرة من القرن الماضي بسبب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية التي عرفتها قرى وبلدات الظهرية الوسطى، في علاقة بتأزم الأرياف التونسية وعزلتها وحالات الخلاء الريفي. ومن ثمة، كانت مساهمة نشاط إنتاج العسل محدودة جدا في دخل الأسر[38]. وتبين معايناتنا في مجال الدراسة انه منذ عشريتين تقريبا، شهد النشاط تطورا من حيث عدد المناحل وطرق الإنتاج وذلك بمبادرة خاصة من سكان المنطقة وبتشجيع من الدولة بتقديم المنح للباعثين الشبان في إطار برامج امتصاص البطالة (برامج التنمية الريفية المندمجة، تدخلات البنك الوطني للتضامن، جمعيات التنمية...). وهكذا، فان نشاط تربية النحل في المجال الغابي لجبل برقو يعد من الأنشطة المتجددة في المنطقة فقد بين الباحث السوايحي[39] سنة 2016 أن نشاط تربية النحل يعد احد الأنشطة المتعاطاة من طرف الأسر في إطار التعدد النشاطي العائلي المميز لهذه المناطق الغابية الداخلية وتهم قرابة 3/1 أرباب الأسر في دشرات عين بوسعدية والبحيرين والغار وان كل أسرة تمتلك في المعدل 28 خلية نحل وان مساهمة هذا النشاط في مجموع الدخل الأسري تتراوح بين 15 و 50 %.

ونظرا إلى ثراء المجال الغابي بجبل برقو بالنباتات العسلية (الجدول 6)، فان المنطقة تستقبل خاصة خلال السنوات الجافة عددا كبيرا من المناحل المتأتية من مجالات أخرى بمقابل (الساحل والقيروان ونابل والكاف وغيرها) ، في إطار حركة انتجاع[40] لخلايا النحل للاستفادة خاصة من نبات الخروب خلال شهري سبتمبر واكتوبر.

---

[38] Hédi Abdallah, *Impacts des communautés paysannes sur la forêt et ses marges steppiques dans le secteur de Soughas (Nadhour-Zaghouan)*, Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de Manouba, 2013, 136 p.
Hédi Abdallah, *Dynamique de la végétation et transformation des systèmes d'élevage sur les marges arides du Tell oriental de Soughas à Souar (Dorsale Tunisienne)*, Thèse, Université de Tunis/Université de Toulouse I, 2015, 373 p.
Hédi Abdallah, *Dispositif de valorisation de l'Apiculture chez Ouled Zouabi (Dorsale tunisienne),* in Nomène Féhri (éd.), Actes du 1er symposium international de l'AGT, 2016, 15 p. (sous-presse).
[39] Marouène Swayhi, *Végétation, usages et activités*... Op. Cit. p. 183.
[40] Transhumance.

ومن أهم أنواع العسل في المجال الغابي لجبل برقو نجد خاصة عسل الخروب وعسل المروبيا وعسل الإكليل وعسل الكالبتوس وعسل الزعتر وعسل الخلنج[41]. ومن بين هذه الأنواع، يقبل المستهلكون خاصة على عسل الخروب وعسل المروبيا. وفي هذا الإطار، يمكن العمل على أن يتحول هذان النوعان من العسل إلى منتوج محلي مميز لمجال جبل برقو حامل لعلامة مثبة للأصل مما يساعد على حماية النشاط ويساهم في الترويج للمنتوج في الأسواق الداخلية والخارجية.

جدول 7: عدد النحالة من بين أرباب الأسر ومعدل خلايا النحل في بعض دشرات جبل برقو

الدشرة	النحالة %	عدد خلايا النحل لكل نحال	الدخل من نشاط تربية النحل بحساب الدينار التونسي
عين بوسعدية	33	23	2760
الغار	33	31	3720
البحيرين	40	30	3600

المصدر: Swayhi, 2016

5.4. الترويج لمسلك الزيت البيولوجي

تتميز بعض المناطق الجبلية في الظهرية الوسطى والتل العالي في تونس بتقنيات تقليدية ومتوارثة في غراسة الزياتين تعتمد على تطعيم أشجار الزيتون البرية أو"الجبوز" المتواجدة بكثرة على السفوح وقرب المنفرجات الغابية مما يمكن من الحصول على أصول زيتون منتجة وخاصة متأقلمة مع خصوصيات المجال الطبيعة (البرد، الترب، تذبذب الأمطار، أمراض الأشجار...) ومعروفة تحت مسمى "الزيتون الروماني" أو "زيتون لقيم" وهو ما يفيد قدم هذه التقنيات الفلاحية. وتنتشر هذه النوعية من غراسة الزياتين بكثرة في المناطق الجبلية في المجال الغابي لبرقو نظرا لامتداد تشكيلات الجبوز (الزيتون الجالي. انظر الجزء الثاني) في كامل

[41] Idem.

مجال الدراسة. ومن الشواهد الأخرى على قدم هذا النشاط في جبل برقو، انتشار اثار معاصر الزيتون من أصل روماني في كامل مجال الدراسة.

تتميز أشجار الزيتون هذه، بضخامة أحجامها وبامتداد أرومتها[42] وتأكلها مكونة مناظر لافتة في هذه المستغلات الفلاحية التي يملكها صغار الفلاحين في المنفرجات الغابية. وبالإضافة إلى بعدها المشهدي الطريف، تنتج مغارس الزيتون زيتا بيولوجيا يستخرج بواسطة أساليب تقليدية تجعل منه بضاعة تلقى رواجا في الأسواق المحلية والوطنية وحتى العالمية. نعتقد أن المحافظة على المسلك التقليدي للزيت في مجال برقو ومزيد التعريف به من شانه أن يساهم في صون المعارف والتدابير الفلاحية التقليدية في مجال الدراسة من الاندثار بسبب اجتياح نمط الاستغلال الانتاجوي للأرياف من جهة، ويمكن من توفير مداخيل إضافية من جهة أخرى.

خاتمة

تقدم الكتلة الجبلية ببرقو مثالا حيا عن ديناميات الأوساط والمشاهد في بيئة نصف قاحلة في الحوض الجنوبي للمتوسط.

يحتضن مجال الدراسة تنوعا في المشاهد الغابية وثراء في الأنواع النباتية ناتجين عن تأثير مزدوج للمعطيات الطبيعية (وخاصة التضاريس والبيئات البيومناخية) ومختلف تدخلات الإنسان في المجال استغلالا وصيانة. فمنذ نهاية القرن 19 شهدت المنطقة تواترا لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، بعضها محلي وبعضها خارجي، أدت إلى حصول موجات كبيرة من الاجتثاث والتدهور الغابي. فقد افرز التغلغل الاستعماري من خلال سياسة التوسع الزراعي تراجعا كبيرا للأراضي الغابية المتواجدة في أسفل السفوح وأقدام الجبال. وقد شهدت هذه الدينامية أوجها قبيل الحرب العالمية الثانية. وكان من نتائج ذلك، لجوء السكان

[42] Souche.

المحليين للاستقرار على سفوح الجبال والأراضي المتضرسة، مما افرز ضغطا كبيرا على الموارد الغابية تمثل في عمليات اجتثاث نجم عنها تقطعا كبيرا للمجال الغابي نتيجة إحداث العديد من المنفرجات الزراعية ذات أحجام ومواقع مختلفة وكذلك في استغلال مفرط للثروة الغابية من خلال لنشطة الرعي والقطف والتحطيب والتفحيم...وقد تزامن ذلك مع ازدياد ديموغرافي كبير شهده المجال خلال هذه الفترة مما ساهم في ارتفاع حاجيات السكان وبالتالي تفاقم الضغط على الغابة.

عرفت المنطقة بعد الاستقلال تراجعا لافتا للضغط البشري على المجال الغابي نتيجة لمجهودات الدولة التي سنت القوانين لصون المجال الغابي وتهيئته (مجلة الغابات الصادرة سنة 1966) وانتهجت عدة سياسات للنهوض بالمجتمعات الريفية والقروية، ولكن أيضا جراء تراجع الضغط البشري على الموارد الغابية بفعل الركود الديموغرافي وموجات النزوح الريفي المسجلة منذ سنوات 1970.

نتج عن مختلف هذه الأنساق الدينامية تأزما واضحا للمجال الغابي في الكتلة الجبلية ببرقو، من مظاهره الحالية حالات الخلاء الريفي المسجلة في عدة أوساط وتدهور حاد للأوضاع الاجتماعية للسكان نتيجة انتشار الفقر وتفشي البطالة وتدني مستوى العيش...مما يقتضي التسريع بإرساء منوال تنموي خصوصي لهذا المجال الخلفي من التراب التونسي، يعتمد أساسا على تثمين الموارد الترابية المحلية المتنوعة التي يكتنزها في إطار الاقتصاد التضامني والمستدام.